الفصل الثالث والأربعون

أوصاف مدينة (الفسطاط القديمة)

أى: مصر القديمة أم الدنيا العظيمة

كم من آلاف المجلدات، والكتب القيمة تتضمن أوصاف مصر القديمة، ووصف فيها استبحار عمرانها ولكنى أذكر ما شهدته بعين رأسى من مظاهر عمرانها. فبعد الطوفان عمر مدينة الفسطاط (البود بن قفط بن بيطار بن حام ابن سيدنا نوح النبى (عليه السلام) وكان أبو البود هذا أول من أجرى النيل أمام تلك المدينة، وفى تلك الحقبة من الزمن كان النيل يسمى (بلون)، وفى أيامنا هذه يسمى أهل النوبة النيل (جربلون)، وكانت الفسطاط مدينة عظيمة يمتد عمرانها من الغرب إلى الجنوب بقدر ثلاثة منازل، بيد أن (بخت نصر) خرب دمشق والقدس وبلبيس فى أرض حاسان وكذلك الفسطاط، ثم عمرت مرة أخرى، وفى عصر الرسول ﷺ تحالف (هرقل) قيصر الروم مع الأسبان والفرنجة، وفى فيضان النيل دخلوا مصر من دمياط ورشيد بألف سفينة، وانتزع اليونان مصر عنوة من يد المقوقس، وأوقفوها على كنيسة (آيا صوفيا) بالقسطنطينية.

أما أول من بنى مصر القديمة (نقراوش مصرايم) أحد أبناء سيدنا آدم عليه السلام.

وبعد طوفان نوح تزوج بيطار بن حام بن نوح عليه السلام بابنة (قليمون الكاهن)، وقدم العريش بإذن من نوح (عليه السلام)، ثم قدم بعد ذلك إلى بلبيس ومصر، وما عمروه مذكور آنفا، لكنى سوف أذكر ما هى عليه الآن.

إنها مدينة قديمة على بعد ساعة من القاهرة فى إتجاه الجنوب على ساحل النيل تمتد من ساقية الغورى إلى نقطة تحصيل الجمارك، وهى تمتد من الجنوب إلى الشمال بمقدار ألف وثمانمائة قدم، وفيها قصور عالية من خمسة طوابق أو أكثر.

وعرض هذه المدينة يبلغ ثلاثمائة أو أربعمائة أو خمسمائة قدم، ويبلغ فى بعض الجهات ستمائة قدم، وتطل أماكن جميلة فيها على النيل.

ومن أجل أن يشاهد أعيان مصر (كسر النيل) أقاموا قصورا متعددة الطوابق والقاعات والمظلات، وحدائق، ونافورات وأحواضا، فكأن هذه القصور قصور فى إرم ذات العماد يعجز عنها الوصف. ومنازل الأثرياء والفقراء كبيرها وصغيرها ٤٦٠٠ منزل، ولوقوعها على النيل لها مرافئ، وتأتى إليها ١٠٠٠٠ سفينة كبيرة وصغيرة من بلاد الفونج، وولايات صاى والنوبة والواحات وترسو هذه السفن على ساحل مصر القديمة، وتسلم إلى الحكام.

وفى عام ٢٥ كان بمصر القديمة هذه ٣٦٠٠٠ مسجد، و٨٠٠٠ شارع مزدحم، و١١٧٠ حماما خاصا وعاما، و١٠٠٠٠٠ حانوت.

وفى عام ٤٢٨ نشب القتال بين عبيد المستنصر بالله الفاطمى فى مصر، وهلك الجند قاطبة وفى هذا العام أصاب مصر قحط عظيم، وغلت الأسعار وتفشى الطاعون، فأقبل جميع أهل الفسطاط على المستنصر بالله أبى تميم سعد بن الظاهر الأعز لدين الله أبى الحسن على، وهو أحد صفوة الفاطميين، وتقدموا إليه بالشكوى. فوجه المستنصر بعشرة رجال من أهل الفسطاط إلى القسطنطينية لطلب المدد (أى الغلال) من الأمير أرطوغرول أمير أحد الثغور التابعة للسلاجقة، فمضوا إلى مدينة (آبا صولون)، بيد أن المستنصر توفى وسفن الغلال فى طريقها إلى مصر، فارتدت هذه السفن إلى بلاد الترك، وتخربت مصر وأصبحت خاوية على عروشها. ولكن وجه ببعض الرجال إلى أرطغول ليطلب من القيصر الغلال لمصر، كما بسط أرطوغرول رجاءه إلى القيصر بأن يسمح له بأداء صلاة الجمعة فى دير آيا صوفيا مع الرسول الذى قدم من مصر، والتقى هذا الرسول فى ثلاثمائة من رجاله بقسطنطين، وأجيب إلى رجائه، وأدى صلاة الجمعة هو ورجاله فى كنيسة آيا صوفيا، وقرؤا الخطبة باسم القائم بأمر الله الفاطمى.

إلا أنه قبل أن تصل الغلال إلى مصر، تحت وطأة المجاعة، فتح القائم بأمر الله (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس، وتنامى إلى سمع الملوك والقياصرة أنه غنم ما يعادل مائة خزانة مصرية، فأبحرت ألف سفينة من سفن الصليبيين من سلفاك وأغارت على قلاع الإسلام فى طرابلس الشام وبيروت وصيدا وعكا والرملة وأحكموا سيطرتهم عليها

واستعادوا ما اغتنمه القائم بأمر الله من كنيسة قمامة ببيت المقدس وكانت فضيحة بكل ما تحمله الكلمة من معان.

وفى عام ٤٥٤ استولى الروم والفرنجة على مصر، وتفشى فيها الطاعون أعواما عشرة بتمامها، وشهدت الفسطاط هذا الخطب، وكى لا يستولى الصليبيين على الفسطاط ثانية قدم (جوهر القائد) وزير المعز لدين الله الفاطمى من المغرب إلى سفح جبل المقطم الذى يبعد عن النيل مسيرة ساعة عام ٣٥٧، وجوهر القائد هذا هو أول من بنى مصر الجديدة، وكان جوهر القائد مملوكا لأبى المعز ولقّبه بأبى الحسن وأصله غلام رومى، ثم رباه الطواشى ( )[1].

وفى عام ٢٧ أصبح جوهر القائد وزيرا للمعز، وفتح مدينة فاس فى المغرب، وتلمسان ومراكش وطنجة والسودان وأسوان والحبشة واستولى على ممالك عشرين ملكا فى اليمن والعراق وفارس والهند والصين، وذلك فى ستة أعوام ثم قفل إلى المغرب، وبعد ذلك هبط مصر عام ٣٥٨ وبنى فيها مدينة القاهرة.

أما سبب تسمية مصر بالقاهرة فجاء فيه عدة روايات والصحيح أنه بينما كان جوهر القائد يرسى أساس مدينة القاهرة علق المنجمون ناقوسا فى حبل وذلك لرصد ساعة السعد حتى إذا رصدوها أرسى العمال ما فى أيديهم من أحجار فى أساسها، إلا أن «العبد يدبر والله يقدر» فجرى قضاء الله بأن يحط غراب على ناقوس المنجمين وحينما نَقَرَ الناقوس ألقى البناؤون أساس مدينة مصر وكان الوقت وقت نحس من أوقات النجم المعروف بالقاهرة أى ما يعرف فى اصطلاح المنجمين بكوكب المريخ، وهو جلاد الفلك، وبذلك لم ينقطع جريان الدماء والحروب والفتن فى القاهرة، وبما أن وضع الأساس لهذه المدينة كان فى طالع القاهرة سميت مدينة مصر بالقاهرة المعزية.

---

(١) بياض فى الأصل.

حكام مصر العتيقة

يحكم مصر القديمة سبعة حكام:

أولهم: بك عظيم من بكوات مصر

وله من الأتباع ثلاثمائة جندى مدججون بالسلاح، ويقيم هذا البك فى قصر عظيم يباشر منه مهام الحكم وله فرقة موسيقى عسكرية (مهتر) تعزف طيلة شهر بتمامه، ويقيم الولائم، وبعد شهر يتولى بك آخر منصبه، وهذا ما نص عليه القانون. وإذا ما سرق شىء من غاد أو رائح فى عهد محافظة بك من هؤلاء البكوات فالمسئولية واقعة عليه وكان لزاما عليه أن يقبض على اللص السارق على أى نحو كان، أو يدفع الغرامة ليعوض بها صاحب المال المسروق.

- و الثانى:

حاكم ينوب عن مولا مصر من قبل حاكم الشرع المبين، وراتبه ١٥٠ أقجه.

- و الثالث:

رئيس البوابين الذى يعين من قبل الباشا ويعاونه ١٠٠ رجل، ولأنه يشغل منصب الناظر أغا لأنبار يوسف يرهب جانبه جميع الكتبة والأمناء والحمالين وحاملى التروس إنه منصب رفيع يشغله من له علم بالكتاب ويعرف بالاستقامة، وإذا ما خامر الشك أحد فى نزاهته صودر ماله.

- و الرابع:

إنه أمين الأنبار وهو مركز مرموق لمماليك مصر، ويعاونه مائة من الأتباع، له الحكم على ألف من خدامه وجميع الفلاحين.

- و الخامس:

وهو جورجى من فرقة الانكشارية، ويحكم بمعاونة أربعين أو أكثر من الأتباع.

- و السادس:

إنه أمين الجمرك، ومهمته تحصيل الرسوم الجمركية على كل ما يطير فى الجو أو يدب على الأرض أو يسبح فى الماء.

وهو صوباشى مصر القـديمة، ويقوم بمهام المحافظة على الأمن ليـل نهار، ويصحبه ستون من القواسين.

- و الثامن:

وهو جوريجى من طائفـة الانكشارية، يقوم بمهمة حفظ الأمن بمعـاونة مائتى جندى مدجج بالسلاح. ولهذا الحاكم تكية جميلة على النيل يعجز الوصف عنها، والشمس لا تؤثر فيها فهى تكـية فى ظلال أشجار عالية، ويجلب إليها السـقاءون الماء من النيل ليل نهار، مما يجعل أرضها رطبة تحمى النفوس.

- و التاسع:

إنه أمين ساقية السلطان الغورى، وهو كذلك من جوريجى الانكشارية، ويقوم على صيانة الساقية مع سبعين أو ثمانين من رجاله، ويروى أرض مصر.

وصف قلعة مصر العتيقة

ذكر فتح المسلمين مصر من أيدى الكفار، وما حدث فيها بعد ذلك من المدن والأمصار.

إن كل ما سجله جميع المؤرخين عن مصر مقصود به مصر القديمة، وبما أنها عمرت ثمانى مـرات فإن لها ثمانيـة أسماء. كان اسمها فى الـبداية الفسطاط، والاسـم الثانى (امسوس)، واسمها الثالث (قصر الشمع) حيث كان لها برج مرتفع به مصباح مطلسم، ومن عهد طوفان نوح عليه السلام إلى عهد سيدنا موسى والشمع متقد على الدوام، لذا سميت مدينة (قصر الشمع) ولا يزال أساس برجها هذا ظاهر للعيان.

ثم أقيمت مدينة عظيمة خارج مدينة الفسطاط سميت (مقر العسكر)، ولقد عمر هذه المدينة السلطان أبو العون عام ١٣٢، وأبو العون هذا هو ابن عبد الملك. ثم قدم أحمد بن طولون من بغداد عام ( )[1] فزاد فى عمران مصر، وسكن القصر الذى شيده أبو العون، وبنى ابن طولون مدينة جميلة سماها (القطائع)، وكانت تضم مائة ألف دار عظيمة. وكـانت هذه المدينة حاضرة مـلك أحمد بن طولون، ثم دالـت دولة أحمد بن طولون، وتخـربت مدينة القطـائع وعندئذ قدم جوهر الـقائد فى جيش عظـيم من بلاد

(١) بياض فى الأصل.

المغرب، وعندما بنى مدينة القاهرة كان قد تعاقب على حكم مصر ستة عشر ملكا من مغاربة وعجم، ومنهم من كان يسكن مدينة (مقر العسكر)، ومنهم من كان يسكن أطلال (مدينة القطائع).

وكان أول خلفائهم (محمد بن سليمان)، وكان كاتبا لأحمد بن طولون وعبدا فى ذات الوقت . وكان يلقب بالورد لأنه كان كاتبا للورد. وله فى القاهرة الآن جامع.

وقد انتزع (جوهر القائد) الذى قدم من بلاد المغرب، الملك من محمد بن سليمان هذا والسلطان أحمد آخر سلاطين الإخشيديين، وعندما أحكم قبضته على مصر كان قد مضى على قيام الدولة العباسية مائتان وخمسة وعشرون عاما، تلى ذلك أربعة وثلاثون عاما وعشرة أشهر وأربعة وعشرون يوما هى فترة حكم الإخشيديين التى انتهت بحكم أحمد بن على بن ( )[1] الإخشيدى، وكان ذلك عام ٣٥٨.

ويزعم البعض أن ملكا يسمى (إبنى ارسلاوش) كان قد أقام قصرا عظيما فى موضع مدينة الفسطاط وكانت الشمس إذا ما انتقلت من برج إلى برج فى غرة كل شهر، أوقدوا النار تلك الليلة فوق هذا القصر، وبذلك كانوا يعرفون انتقال الشمس من برج إلى برج، ولذلك سميت هذه المدينة (أرسلاوش)، ومعناها فى العبرية بيت الشمس. ثم خرب (بخت النصر) هذه المدينة وظلت خمسمائة عام بتمامها خرابا يبابا، حتى ألحقت بمدينة أخرى سميت (مدينة يشكرقود) وهى سوق.

كما بنيت مدينة عظيمة على مقربة منها سموها (حمراى قصوى)، ثم قدم (جوهر القائد) مصر من بلاد المغرب عام ٣٥٨ وهو مملوك للمعز لدين الله الفاطمى وشيد جوهر القائد هذا مصر الجديدة التى سمت (القاهرة المعزية)، وكان أحمد بن طولون قد شيد مدينة جميلة على مقربة من مدينة ( )[2].

وعندما كانت الغلبة لملوك الروم على ملوك القبط حكم مصر (أرجالس بن مقراطيس)، وبنى مدينة فى موضع مدينة الفسطاط (فسطه أرجاليس).

(١، ٢) بياض فى الأصل.

وعلى حد قول بعض المؤرخين أن من يدعى (حصنى كسرى جوش)، كان من ملوك الفرس المجوس، تولى على مصر بعد (بخت النصر)، بنى مدينة ضمها إلى مصر سميت (قبة الدخان) لأنه أقام فيها معبدا عظيما للنار، وآثار قباب معبد النار هذا ظاهرة خارج مدينة مصر القديمة إلى يومنا هذا، ويسكن حاكم مصر القديمة بالقرب من هذه القبة.

وبنى (اشمون بن قبطيم) مدينة فى سفح جبل المقطم سماها (أوطى طيس)، وفى نواحى الجيزة مدينة تسمى (أتريب) نسبة إلى الملك (أتريب) الذى شيدها.

وبالقرب من مدينة مصر بنى الوزير (جيرون) مدينة (قندومه) للملكة (خروبا)، غير أن حاكما من هؤلاء لم يستطع بسط سيطرته على قلعة مصر القديمة، لأنه منذ عهد عمر بن الخطاب للقبط الذين يسكنون هذه القلعة عهود أمان، لا يستطيع أحد أن يتعرض لها أو يدخلها، إذ إن جميع رهبان القبط يسكنونها وكانت لهم فيها أديرة قديمة ويسكنها ما يقرب من ألف قبطى يقولون إنها مسكننا القديم. وداخل أديرتها دفن قبطيم، وفلبطير، ومىخائيل، وميكائيل وطوطيس. وقلعتهم قلعة عتيقة خربة إلا أنهم رمموها وأصلحوها خوفا من عادية اللصوص، صنعوا لها بابا صغيرا منخفضا ينفتح على الجهة الغربية لا يدخل منه الفرس، إنما يدخل منه الحمار والماشى. ومحيط هذه القلعة يبلغ ١٠٠٠ قدم، وهذا الدير دير مرتفع يشبه برجا عظيما ويحيط بهذه القلعة خندق عميق، وهم يطهرونه فى كل عام.

أما البوابون فهم من الرهبان، وليس بينهم أحد سواهم، وكانت هذه القلعة قلعة عظيمة فى الزمان الخالى، وجدرانها وأسوارها ومزاغل برجها ظاهرة إلى يومنا هذا. إلا أن ما يسكنه القبط الآن فهوالقلعة الداخلية وتقع فى الناحية القبلية من المدينة، وجوانبها الأربعة رملة وخرائب لكن ضواحيها فهى مدينة مصر القديمة المعمومة، وكان بها ٢٧٠ محرابا، و١٢ جامعا سلطانيا معمورا، وأعظم هذه الجوامع جامع عظيم كالقلعة يستجاب فيه الدعاء.

جامع عمروبن العاص

سبق وصفه تفصيلا عند وصفنا للجوامع، وليس فى مصر جامع يكبره له أربع منارات فالجوامع الأخرى منها ما له منارة، وما له اثنتان.

جامع السلطان محمد بن قلاوون

يقع بالقرب من ساقية الغورى، إنه جامع عجيب بالقرب من ضفة النيل، ومساحته ١١٠ قدم فى مثلها، بيد أن جانبه القبلى منهدم، وأعمدته ساقطة على الأرض.

وفى الجوانب الأربعة للحرم ٦٨ عمودا، تحمل سقفا عتيقا. وللجامع ثلاثة أبواب، ومنارتان وعلى جانبى باب القبلة تاريخ مسطور بخط تبلغ مساحته قامة إنسان وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى مولانا السلطان الملك الناصر للدنيا والدين محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون أعز الله أنصاره بمحمد وآله، وذلك فى سنة إحدى وعشرين وتسعمائة).

جامع الأمير عابدين

يقع هذا الجامع على مقربة من الجمرك، قبالة (أم القياس)، إنه جامع لطيف على ضفة النيل، له قبة حجرية مستديرة تقوم على أربعة أعمدة. وهو مكشوف الوسط وعليه شبكة. وجدران الجامع من الداخل مكسوة من أولها إلى آخرها بالقيشانى، ومحرابه كذلك يحمل زخارفا من القاشانى، ومنبره من الخشب المزخرف، وعلى باب منبره تاريخ مسطور هو: (سنة ١٠٧٠). ولهذا الجامع منارة عالية تركية الطراز من طبقة واحدة. ونوافذه حديدية القضبان تطل على الطريق العام، إنها نوافذ لا نظير لها فيما جلب من نوافذ اسطنبول.

جامع محمد بن حسين الكوفى (ذو المنارة المائلة)

يقع داخل السوق، تخرب أحد جوانبه، وله منارة عالية مائلة، وقد بنيت هذه المنارة مائلة والله أعلم، إنها منارة غريبة وعجيبة، فهى لا تنهدم قط. وقد كتب على أبواب

جانبه الأيسر آية من آيات الذكر الحكيم هى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ [سورة التوبة ١٨]. وكتب بعد هذه الآية (محمد بن حسين الكوفى سنة ستين وسبعمائة).

جامع السلطان چقمق

يقع هـذا الجامع داخل سوق أوزون الـطويل، ويسمى جـامع الحسنات، إنـه جامع صغير له ثمانية وثلاثون عمودا منخفضة، تحمل سقفا ذا زخارف.

وعلى جانبى بابـه، وداخله على لوح فى منبره تاريخ مسطـور هو: (أمر بإنشاء هذا الجامع المبارك مولانا السلطان الملك الطاهر محمد بن أبى سعيد جقمق عز نصره بمحمد وآله وصحبه أجمعين). ويعلو بابه منارة منخفضة.

جامع الملك الطاهر

يقع على مقربة من جامع السلطان جقمـق، وله منارة، وبما أن المصلين فيه قليل بابه مغلق على الدوام، ولذلك لم أدخله.

وعلاوة على هذه الجوامع المذكورة توجد الزوايا.

جامع الشيخ حسن السويدى

حينمـا كان زاوية تردد عليه كـثير من المصلـين ولذلك تحول إلى جامـع، إنه جامع جميل منور يقع داخل السوق.

وفى مدينة (مصر القديمة) ثلاث مدارس، و٢٠ مكتـبًا للصبيان، وخمس تكايا، بيد أنه لا وجود لتكية عظيمة مثل تكية الشيخ (على ياحى) بالقرب من الجمرك، لها أشجار جميز ضخمة، ويزورها العوام والخواص، ولكن لا أوقاف لها.

وفى خمـسة مواضع علـى ضفة النـيل تكايا، إلا أنـه ليس لهذه الـتكايا أبـنية ولا أوقاف، يؤمها عـابرو السبيل والمجاورين لـلصلاة فى ظلال الشجر، وكـأنها رياض من رياض الجنة. وقد أقام بعض فاعلى الخير محاريب وصفات لهذه التكايا، ولها من يقوم على الخدمة فيها .

وفى إحدى هذه التكايا يجمع جورباجية الانكشارية الإتاوات من الغادى والرائح ممن يحملون السلع، إنها دار للمظالم، ليصرف الله شرها فلا نجاة لفقير دون أن يدفع نصف ما يحمله من سلع. وكان هذا المكان هو المكان الذى يحصل فيه فرعون الضرائب لتأمين التجارة فى مصر القديمة. وطالما كان الأقباط يخرجون عن حدود الأدب عند عبورهم من هذا المكان يمضون. إنه مكان له الشهرة فى الآفاق، وهو سيئة من سيئات فرعون التى أغرقت الدنيا بالظلم.

وكان قديما فى هذه المدينة ٧٠٠ حمام، والآن لايوجد إلا حمام واحد فى السوق، وبها الآن كذلك ١١ وكالة، و١٠ مقاه، أما فى مواسم (قطع النيل) فهم يزينون المقاهى المعطلة، ويعقدون فيها مجالس الأنس والغناء، كما أن بها ٣٨٠ حانوتا واسعا وكثير منها مغلق. ولا وجود فيها لسوق الأقمشة.

مخازن الغلال التى بناها يوسف الصديق - عليه السلام - (أنبار يوسف)

تقع عند منتصف المدينة على ضفة النيل، وقد بناها يوسف الصديق عليه السلام.

وقصة يوسف الصديق واردة فى كل كتب التاريخ، إلا أننا فى هذا المقام نجملها إجمالا لأن ذلك من ألزم اللوازم:

لما كان الملك (الريان) ملكا لمصر، وقع يوسف الصديق فى الأسر وبيع فى مصر، فاشتراه عزيز مصر، ولفرط عشق (زليخة) زوجة العزيز له افترت عليه كذبا، فزج به فى غياهب السجن، وطرح فى السجن معه كذلك فتيان، يقول عز من قائل: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]، ففسر يوسف رؤيا أحدهم قائلا: سوف يصلبونك وفى تلك اللحظة جاء السجانون وأخرجوا هذا الفتى من السجن وصلبوه.

وخلاصة القول أنه عندما كان يوسف الصديق حبيسا فى سجنه اشتهر بحسن تأويله للرؤى.

بعد ذلك اتفق أن رأى الملك الريان رؤيا، يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]. فأخرجوا يوسف من السجن، وفسر رؤيا الملك الريان قائلا: أيها الملك سيقع فى البلاد قحط عظيم يدوم سبعة أعوام فأطلق الملك سراح يوسف الصديق من سجنه. وبدأ الملك يبنى مخازن الغلال بناء على رأى يوسف إلا أن الملك وافاه الأجل، وجرى قضاء الله بأن تؤول الخلافة إلى يوسف على مر الأيام، فأنشأ هذه المخازن.

وقحطت مصر سبعة أعوام، وقحط مصر على عهد يوسف أمر مشهور، وكان ذلك هو السبب فى بناء مخازن يوسف. وقد تغيرت معالم هذه المخازن لأنها دخلت فى حوزة آلاف الملوك وخرجت منها أما أساس بنائها فى الأصل فكان الأرض، أما الآن فهى قلعتان مربعتان متقابلتان.

إنها مكان غريب وعجيب حقيق بالمشاهد وبتعبير العوام إنه أسطورة.

ويبلغ ارتفاع جدرانها أربعين ذراعا، إنها بناء من الآجر الأحمر كأنه سد الاسكندر، وغطيت بشبكة من الغاب، وإذا ما دخلها أحد أخذه شديد العجب. وبما أنها مكشوفة السطح فإن أسرابا من الحمام واليمام لا حد لها تحط عليها لتلتقط ما فيها من حب ثم تطير أسرابا، ومن عجب أن هذه الطير التى تبلغ مئات الآلاف تلتقط الحب منها ليل نهار إلا أن حبة منها لا تنقص، وذلك بفضل من الله.

حتى إنه قيل ذات مرة إن الغلال تنقص من أجل التقاط الطير تلك حباتها فأقاموا سقوفا لهذه المخازن لستر ما فيها، وفى تلك السنة أصاب مصر قحط شديد أشد كثيرا من القحط الذى أصاب مصر على عهد يوسف ففتحوا المخازن فما بقيت فيها حبة واحدة مما خزنوه، وأصبحت رمادا حالك السواد، وماتت على سقوفها مئات الآلاف من الطير، وكاد أهل مصر يأكل بعضهم بعضا من شدة الجوع فاجتمع العلماء والعارفون بالله وتشاوروا فى الأمر واستقر رأيهم على هدم الأسقف التى أقيمت فوق المخازن، وإلى يومنا هذا وهذه المخازن مكشوفة.

وفى أول العام مضى وزير مصر وفى معيته جميع الأمناء وأغوات الفرق السبع والدفتردار إلى أنبار يوسف (أى مخازن يوسف)، وذلك لمحاسبة أمين المخازن وعندئذ ظهر عجز قدره اثنا عشر ألف أردب كانت قد غرقت فى الماء والتقطتها الطيور فحسبت على المال السلطانى.

وداخل هذه المخازن( )[1] مائة ألف أردب من القمح، و( )[2] مائة ألف أردب من البقول و( )[3] مائة ألف أردب من الشعير، وهذه الغلال ترد من صعيد مصر العالى (أى جرجا)، ولا ترد مصر حبة قمح واحدة من رشيد ودمياط لأن إنتاجها من القمح لا يكفيها لأن محاصيلهم هى القصب والحناء والقطن والكتان والأرز أما الغلال فهى قليلة.

وجملة القول أن مصر أم الدنيا هى ولاة الصعيد العالى، فهى أم مصر التى تطعمها. وهذه الغلال المذكورة محسوبة إلى خزانتين مصريتين لصالح السلطان.

ومخزن يوسف هو أحد مخازن مصر البالغ عددها ( )[4]، وجميع مخازن غلال مكة والمدينة، الدشيشة والمحمدية والمرادية، والخاصكية فى مدينة بولاق، وكتبتها ونظارها وأمناؤها وكيالوها لهم إدارات خاصة بهم. وفى بادئ الأمر كانت إدارات الدشيشة فى يد الأغوات السود، وكانوا نظارها، وقد أخطر الكتخدا إبراهيم باشا السلطان أن أوقافهم تخربت، فصدر فرمان من السلطان بإسناد إدارتها إلى فرقة الانكشارية، وتولى رئيس الانكشارية نظارة هذه المخازن.

وغلال الحرمين اثنان وأربعون ألف أردب، ترد من قرى صعيد مصر العالى بعد أن يحصلها نظار الأوقاف من تلك القرى، ثم تخزن فى مخازن بولاق. ثم يقوم عرب الدشيشة بحملها على عشرة آلاف جمل إلى ميناء السويس حيث توجد سفن المحمدية والمرادية والخاصكية، ويسلمونها بدفتر إلى القباطنة الذين يحملونها إلى جدة وينبع حيث تسلم لمكة والمدينة، ولا تخزن أى حبة من غلال مكة والمدينة فى أنبار يوسف، فقد كانت فى عصر الشراكسة تخزن فى أنبار يوسف حتى فتح السلطان سليم مصر

(١ : ٤) بياض فى الأصل.

وعندئذ قال جميع المماليك للسلطان سليم: يا مولانا السلطان لقد امتزجت جرايتنا وأعلافنا بغلال مكة والمدينة، وأصبحنا جزءًا من الوقف، فعدمت البركة أموالنا وأرزاقنا وطعامنا، فنرجو يا مولانا السلطان أن تمنع ذلك . فاستجاب السلطان لرجائهم وأنشأ المخازن سالفة الذكر فى بولاق، وكان هذا منه خيرا عظيما، وهذه المخازن كذلك مكشوفة بلا سقف.

وفى مصر القديمة هذه عدة مئات من مخازن الغلال، وهى شونات خاصة بأعيان وأشراف مصر، وكلها مسقوفة، بيد أنها عديمة البركة. وإذا ما وقع القحط فى مصر لحق الضرر- ولا شك بأصحاب هذه المخازن، وهذا الضرر يصيب أموالهم وأرواحهم وعيالهم.

ولكن الله وهب (أنبار يوسف) بركة الخليل، ففى مصر سبعون طائفة عسكرية، وهى: الانكشارية، والعزب، والمتفرقة، والجاويشية، والمطوعة، والسپاهية، والتوفنكجيان، والجبه جيان، والمدفعية، وطائفة المتقاعدين، والجواليه، والأيتام، والطواشية، والنساء، وطائفة الأئمة والخطباء، والمشايخ، والسادات، والحاصل أن هذه الطوائف السبعين سالفة الذكر تضم سبعة وأربعين ألف وثلاثمائة وسبعين من عبيد السلطان يصرف لهم الجراية والعلف كل عام وكل شهر صباح مساء من أنبار يوسف.

وعلاوة على هؤلاء ففى القاهرة مليون وستمائة ألف نسمة طبق ما سجل ببرام باشا، وهؤلاء كذلك تمس حاجتهم إلى مخازن يوسف، لأن حبة القمح هذه مبذولة للغنى والفقير والشاب والهرم والناس جميعا على اختلاف أجناسهم، وكل من له عقل أرسطو يعجز تمام العجز عن فهم تلك الأسرار وحاروا فيها إلى أن ماتوا. إن نعمة الله مبذولة للخلق، فمخازن يوسف هذه معجزته وهى ممتلئة من خزائن الغيب، يقول عز من قائل: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]. إن هذا هو كلام رب العزة القديم، ورزق العالمين عليه عز شأنه، وهذا شاهد على أن الله يرزق جميع مخلوقاته.

يا من كرمك وهو من خزائن الغيب ... طعم منه المجوسى والمسيحى
كيف تحرم الأحباء ... وأنت من ترعى جانب الأعداء

وكم فى مصر من عجائب تستحق المشاهدة، ومخازن يوسف إحدى هذه العجائب.

ولقد طال تطوافى فى دولة آل عثمان، إلا أن أربعة أشياء كانت فوق مستوى تفكيرى: أولها الترسانة العامرة فى اسطنبول، ومطبخ آل عثمان، ومصروفات مكة والمدينة والحجيج، ومخازن يوسف الصديق فى مصر، تلك هى الأربعة التى حارت فيها عقول العقلاء.

ذكر سواقى مصر العتيقة

ومما يستحق المشاهدة فى مصر العتيقة ساقية السلطان الغورى الواقعة فى نهاية الجانب الشمالى من تلك المدينة، إنها قلعة حصينة مثمنة الشكل، يبلغ ارتفاعها ثمانين ذراعا مكيا وتصعد الخيل والثيران حتى ذروتها فى ارتفاع وإنخفاض وهى ساقية تدور بدواليب فى ثمانى مواضع، وهى تسحب الماء من النيل، ويمضى الماء فى مجار إلى القلعة الداخلية لمصر، ولها أمين قائم على أمرها، وتحت إدارته ٣٦ دولابا ويتبعها ٣٠٠ ثور، و٢٠٠ خادم.

وينفق على هذه الساقية فى العام ١٥٠ كيسا من المال السلطانى. إنه خير عظيم وخدمة جليلة ويجرى ماء النيل إلى القلعة الداخلية من خلال ٣٦٠ قنطرة من هذه السواقى، وبذلك يروى عباد الله فى القلعة ظمأهم ويترحمون على السلطان الغورى ويدعون له بالخير.

ولقد شربت طيلة ثمانى أعوام من الماء العذب الفرات لهذه الساقية، الفاتحة لروحه.

وأتحدث الآن عن الخليج الذى شقه الملك المقوقس أى النيل المبارك الذى يخترق مدينة القاهرة عند قطع النيل أسفل جسر أبى المنجا.

***